

أعضاء البيان

@ 172 @ فأخلصوا العبادة والدعاء له وحده في ذلك الحين الذي أحاط بهم فيه هول البحر ، فإذا نجاهم إياهم وفرج عنهم ، ووصلوا البر رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر . كما قال تعالى : { فَلَا مَسَّ لَكُمْ مِنْهُ إِلَى الْيَوْمِ أَعْرِضْتُمْ ° وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَافُورًا } . .

وهذا المعنى المذكور في هذه الآية الكريمة أوضحه الله جل وعلا في آيات كثيرة . كقوله : { هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرَينَ بِهِمْ بريحٍ طيبةً وافرِحُواْ بِهَا جَاءَتْهَا ريحٌ عاصِفٌ وجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَطَنُّوْاْ أَنْزَلَهُمْ أَوْحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ إِلَى اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَأَنْزِلْنَاهُ نُوحًا مِنْ هَآذِهِ لَأَذْكُرَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّآ أَتَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } ، وقوله : { قُلْ مَنْ يُنَجِّيَكُمُ مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَآذِهِ لَأَذْكُرَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيَكُمُ مِّنْهُمَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ } ، وقوله : { فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الْفُلِ دَعَوُاْ لِلَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّآ نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } ، وقوله : { وَإِذَا غَشِيَهمُ مَوَّجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُاْ إِلَى اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّآ نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِأَيِّاتِنَا إِلَّا كَلٌّ خِتَارٍ كَفُورٍ } ، وقوله : { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّلَّذِي ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ } ، إلى غير ذلك من الآيات كما قدمنا إيضاحه (في سورة الأنعام) وغيرها .

ثم إن الله جل وعلا بين في هذا الموضع الذي نحن بصدده سخافة عقول الكفار ، وأنهم إذا وصلوا إلى البر ونجوا من هول البحر رجعوا إلى كفرهم آمنين عذاب الله . مع أنه قادر على إهلاكهم بعد وصولهم إلى البر ، بأن يخسف بهم جانب البر الذي يلي البحر فتبتلعهم الأرض ، أو يرسل عليهم حجارة من السماء فتهلكهم ، أو يعيدهم مرة أخرى في البحر فتغرقهم أمواجه المتلاطمة . كما قال هنا منكراً عليهم أنهم وكفرهم بعد وصول البر { أَفَإِن مِّنكُمْ أَشْجَقٌ } .

يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الدِّرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا { وهو المطر أو
الريح اللذين فيهما الحجارة } قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ
{ أي بسبب كفركم . فالباء سببية ، وما مصدرية . والقاصف : ريح البحار الشديدة التي
تكسر المراكب وغيرها . ومنه قول أبي تمام : قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم
بِمَا كَفَرْتُمْ { أي بسبب كفركم . فالباء سببية ، وما مصدرية . والقاصف : ريح البحار
الشديدة التي تكسر المراكب وغيرها . ومنه قول أبي تمام : % (إن الرياح إذا ما أعصفت
قصفت % عيدان نجد ولا يعبان بالرم) % .
يعني : إذا ما هبت بشدة كسرت عيدان شجر نجد رتماً كان أو غيره .